أكان لازماً يا سوزى أن تعتلى صهوة أبى الهول

كريم عبد السلام

أكان لازماً يا سوزى أن تعتلى صهوة أبى الهول

2012

"يا حسرةً على العباد"

يس –30

صِفْر

لم أكن ميتاً
حين فتحوا المزاد علىَ بدَنى
كنتُ غائباً فى نوم ثقيل ،
ذهب بى إلى جزيرة السندباد ،
حيث الغيلان يقدمون للبحارة طعاماً يسلبهم عقولهم ويملؤهم بالشحم ،
ثم يقصفون رقابهم ويشوونهم على السفّود

كنت مغشياً علىَّ
من الألم والحزن والسأم والشقاء والكآبة
ليس ترفاً أن تهرب الروح قليلا
ليس ترفاً يستوجب العقاب أن أدير ظهرى للعالم
أن أختبر الرحيل فى فاصل قبل أن أقرر مرة وإلى الأبد
وليس من حق التجار عندئذ أن يفتحوا المزاد على جسدى
رأسى ويدىّ وقدمىّ
حواسى وذاكرتى وأحلامى
ليس من حقهم أن يقتاتوا لحمى
وأن يلغوا فى دمى

كنت مع أحلامى
بينما يتصارعون على عينىّ ولسانى وقلبى
قلبى المثقل بالهموم والأهواء والمنى ،
المعذّب بالشك والنقص واللاجدوى
قلبى المليء بفتيات جوجان
والذى يجمع بأريحية عالية ،
المطلّقة والمراهقة والمهجورة والشريرة والمتصابية والكاملة
كانوا يتصارعون عليه
بطيناً بطيناً
أذيناً أذيناً
شريانا شريانا
وعندما استيقظت ألماً من طعنة المشرط
اتهمونى بالخداع
عندما رأوا دمى ساخناً
رمونى بالغش
وحين صرختُ ذهولاً وغضباً
وصمونى بالشعوذة

*

أنا صِفْر
كنت مواطنا وجيهاً لائقاً قوياً
فألقونى فى غياهب الجُب
كنت مقبلاً صاعداً
لكنهم سرقوا حياتى فى غيابى
كنت مع أحلامى
عندما انتزعوا قلبىَ ولسانىَ وعينىّ
ونصبونى خيال مآتة على مشارف المدينة .

المدينة

المدينة تموت

قالها الطفلُ لأمه فى براءة
وغمغمتْ بها الفتاة لحبيبها وسط دموعها
ونقلها الأب لابنه فيما يشبه الوصية

دخان أسود يتصاعد إلى السماء
الصحراء تتحرك بجبالها وكثبانها وتحاصر البيوت
النيل يجف تدريجيا حتى أَفصحَ عن أسرار القاع،
هياكل عظميةٌ تتعانق
جماجم بدون هياكل
هياكل نساء يتكومن حول أطفالهن
هياكل رجال يدفعون أذى غير مرئى،
لكنه لم يُدفع ، فاستقرت عظامهم فى القاع الطينى المتشقق
.....

الملك تنحى عن العرش
الكل باطلٌ.. قالها أخيرا
وخرج إلى الناس باكياً..
" سامحونى
كنت طاغيةً غليظَ القلب
حطمتُ الآلاف منكم فى سجونى
لكن الأوان لم يفت بعد
إذاُ قدّر علينا أن نعيش متباعدين
فمن الأولى أن نموت معا"
.....

الفئران بعيونها الخرزية البراقة
تتلكأ فى الأركان ولا تستجيب للزجر
والحدآت تُحوّم فى السماء
ثم تستقر على الأسطح

رئيس الشرطة تخلى عن منصبه
وخلع نجومه ونسوره ونياشينه
والتزم الجامع ..
" لم يعد هناك مجرمون لأطاردهم
ولا قتلة لأقتصَّ منهم
أصبحنا جميعا هاربين على مركب يغرق
والموت هو الربّان"

.....

الضِباع بألوانها الغبراء والمرقطة
ظهرت فى الشوارع
تتحرك فى جماعات ، بجذوعها المشوّهة ورائحتها الكريهة
وتهاجم كل من تصادفه

قائد الجيش ألقى سلاحه
وتبعه الجنود بحركة آلية
فبدت وكأنها عرضٌ عسكرى
ثم انضموا للعاطلين الذين تجمعوا
، بحكم العادة ، فى الساحات
منتظرين النهاية
.....

المطرب العاطفى كسر عودَه ..
" كيف احتملتمونى طوال هذه السنوات
نقيق الضفادع أعذبُ من غنائى
وموالٌ واحد لبائع البطاطا
يساوى تاريخى الفنى "
.....

رجال الدين انخرطوا فى بكاء حار ..
" قتلْنا فى قلوبنا
وزنيْنا فى قلوبنا

وكذبْنا فى قلوبنا
وسرقْنا أموال الصدقات والعشور فى قلوبنا
كنا نحسد العصاة على جرائمهم
وتمنيْنا أن نلحق بهم
كانت ألسنتنا تتحرك بما تحفظ
وفى أذهاننا شارون ستون وهى تتعرى قطعةً قطعةً
.....

التجار هجروا دكاكينهم وشركاتهم
وألقوا بحساباتهم فى الشوارع..
" شبعنا من دماء الفقراء
ما فائدة الأرصدة
ماذا تفعل الأرقام إذا لم تستطع دفع الموت
ترابٌ كلُّ ما جمعنا
وإلى تراب
.....

المتسولون والعجزة والعاطلون واليائسون
خرجوا بصدور مرفوعة وجباه عالية
اتسعت ابتساماتهم وكأنهم ينتقمون..
" هذه لحظتنا
خسارتنا الدائمة انقلبت نصراً
عوزنا تحول غنىً
خلاصنا الذى نرجوه تحقق بقوة
ودفعنا للمقدمة

.....

وحدهم الأطفال تساءلوا:
كيف تموت المدينة قبل أن نعيش
وخرجوا يبحثون عن الموت ليطرحوا عليه الأسئلة
.....
الشمس غربت سريعاً
والليل جاء مع الرعد والمطر
مطر أفريقى كأنه ضربات
كأنه رسول الطوفان
كأنه لحن النهاية

الأيدى تشابكت حول النار
والعيونُ أغمضتْ فى انتظار الموت
وعندما تأخر، تمنته على أى صورة
قوياً
ساحقاً
سريعاً

متى تنشق الأرض
متى تندفع المياه وتجرف البيوت
متى تدخل الوحوش من النوافذ
متى تعصف الريح العاتية
متى
.....

فى الصباح
كانت الشمس فى موعدها
والأشجار تهتز مع النسيم كأنها تحتفل
ورائحة الخصوبة تغمر الأرض

المدينة عادت من الموت
بدون الملك
أو رئيس الشرطة
أو قائد الجيش
أو رجال الدين
أو التجار الجشعين
أو المطرب العاطفى

المدينة عادت من الموت
فتيّةً
شامخةً
ممتلئة بالرغبة
وأسلمت قيادها للأطفال

أكان لازماً يا سوزى أن تعتلى صهوة أبى الهول

لو أنَّ لى قدرةَ السحرة على العودة بالزمن للوراء
لاحتفظت بكِ طفلةً صعيديةً رقيقةً فى صالات الباليه
تُفرِغ طاقتها فى الدوران على أطراف أصابعها ،
فيما يهتز ثدياها الصغيران على إيقاع الموسيقى

لو أن لى قدرة السحرة على العودة بالزمن يا سوزى
لمنعتك برفق من اعتلاء صهوة أبى الهول..
عفوا سيدتى ، هذا الأسد أكبر من انفراجة ساقيك
لا تأمنى صبره أوصمته الطويل ،
فى لحظة ، يمكن أن يلتفت إليكِ برأسه الضخم
ويضعكِ بين فكيه

لو أن لى قدرة السحرة الرائين
لنهرتُ زوجك الإمعة فى الوقت المناسب ،
اخشوشن أيها العتلّ ،
ثم أمرتُه أن يضربكِ ضرباً خفيفاً بعيدا عن الوجه ،
على ردفيكِ مثلا
وأن يحرمكِ من متعة اقتناء اللؤلؤ الأسود وفراء الفيزون
*

لو أن لى يدين خارقتين لصنعتُ شبيهةً لك ،

ليس صعباً أن تكون هناك أكثر من سوزى ،
موظفةٌ بمجمع التحرير
تجاهد كل صباح حتى تلحق بدفتر الحضور والانصراف ،
عاملةٌ بمصانع المحلة الكبرى
تتوكل على الله وهى ترجو وجبةً ساخنةً لأطفالها ،
فلاحةٌ من أسيوط تزرع أرضها مع الفجر
و لا تتذكر من العالم سوى الستر والصحة ولمّ شمل العائلة
أضعكِ مكانها وأضعها مكانك
وأراقب دورة العناصر وسطوة الجينات..
أن تفسدى قيراطين من الأرض
أو ماكينة فى مصنع
أو مكتباً حكومياً
أهون كثيراً من تدمير بلد بكامله
*
لو أستطيع يا سوزى
لشحنتكِ مع زوجك منذ عقود إلى بلاد أقربائك الإنجليز
هناك تقضيان تقاعداً مريحاً ،
وتراقبان ولديكما يصعدان فى وظائف مشتراة
وعندما تندلع ثورة 25 يناير
تدمع عيونكم من الحنين والتعاطف مع ما يجرى فى وطنكم الأم

*

آه يا سوزى

أنا ، للأسف ،محدود القدرة

ولا أستطيع العودة بالزمن إلى الوراء أو المضى به للمستقبل

أكاد ألمح القسوة والشر فى عينيك

تعاندين مثل مارى أنطوانيت أن تكون لى قدرةٌ أصلا على تغيير قدرك ،

وأراك تقفين أمام المرآة

تتحسسين التجاعيد التى تمرح بعيدا عن الكولاجين

وفى لحظات انهيارك تصرخين .. أوغاااد .. حيواناااات

*

ابتسمى لنفسك يا سوزى

فكّرى ، فى اللحظات القصوى التى امتلكها جسدُك ،

الخلاصاتِ الصغيرة والبهجة والآهات والنشوة التى لا تنسى

فكّرى فى لحظات السطوة المديدة

فكّرى فى صبية صغيرة منحتك زهرة

وهى تظن أنك مقدسة وتعيشين على السحاب

ومازالت على ظنها حتى الآن ،

فكّرى فى الأمهات اللائى يقترضن مدخرات أبنائهن

من أجل ماما سوزى التى تعطف على المرضى .

*

كم أنا واهن يا سوزى لدرجة لا أستطيع معها الجزم
بأنك بعيدة عن خطوات مارى أنطوانيت
يهاجم الثوار قصرك بحثا عن المجوهرات والأموال المنهوبة
و يطوفون بك فى عربة مكشوفة حليقة الرأس ،
يرميك الصبية بالحجارة
ثم يضعون رأسك تحت المقصلة
لكن الثوار ليس لديهم مقصلة ،
يملكون حبالا للمشانق وأسلحة بيضاء وعصىَّ اللجان الشعبية
هل أستطيع منعهم ساعتها؟
هل أستطيع إيقاف الزمن لأثبت المشهد ،
إلى أن تهربى من شارع جانبى ؟
لا أدرى يا سوزى
لا أدرى حقّاً

لا تخف.. إنهم الموتى يحبون الجلوس على مقاعد الكورنيش

لو عنّ لك أن تجلس على مقاعد الكورنيش الحجرية
تاركاً وراءك الشارع المختنق بزحامه
ومشاجرات العابرين وتحرشات الصبية بالفتيات..
لو عنّ لك أن تتأمل صفحة النيل
بعيدا عن جثة الحصان التى يظهر نصفها الأبيض
وورد النيل الذى يجمع حوله الأوشاب والقمامة،
لن يكون مفاجئاً أن يأتى شابٌ جريحٌ
ليجلس إلى جوارك ،مبتسما فى مرارة:
"أنا ميت
هذا جرحى القاتل
الرصاصة جاءتنى من الخلف
مرت بقلبى وخرجت ومعها أحلامى"

ربما يكتفى بالإشارة إلى رأسه المتهشم
وساقيه المهروستين بجنازير دبابة،
أو انبعاجة صدره التى تعنى
استحالة بقائه على قيد الحياة ،
كدليل على أنه لا يكذب.
*
بعد تغلبك على الخوف المفاجئ

تكتشف أن الموتى يحبون أن يسندوا ظهورهم
إلى مقاعد الكورنيش الحجرية
تاركين وراءهم الشارع المختنق بزحامه
ومشاجرات العابرين
وتحرشات الصبية بالفتيات
ليتأملوا صفحة النيل المنسابة
فى وداعة.

المُخْبِر

قبلَ الفجر بقليل
وفى الظهيرة الحارقة
وعندما يسيطر الليل ،
يهرول بخطواته ورائى
كأنما يطمع فى الإمساك بخيالى،
وأنا أتنقل من شارعٍ إلى شارع
أدخن على المقهى
وأهتف بسقوط الديكتاتور
وأمسّد شعر حبيبتى الفاحمَ السواد فى ركن المطعم
*
عينه علىَّ تطلق الرصاص،
كأنى مترجلٌ تواً عن امرأته
وعندما ألتفتُ لمواجهته ،
يهز يديه فى الهواء بابتسامةٍ كلبيةٍ،
وكلماتُه إلى التلعثم تذهبُ
ومنطقهُ إلى احتماءِ اللصوص بالفقر يلوذ

*

مددتَ يدك فى طعامى
ورأيتُكَ تمضغ وتبتلع
ورأيتُ جلدكَ المرقطَ والنابين المترعين بالسم
واللسانَ المشقوق
وإلى العسس ركضتَ ركضاً
وحملتَ بيدك تاجَ الشوك
ووقفتَ تنتظر
ثم ارتفعتْ سبابتكَ بالإشارة إلى ظهرى
*
وإذْ يسلّمنى يفرك يديه فرحاً
ثم يذهب ليبكى بين ساقى امرأته
لأنَّ الله يعاقبه رغم قتاله الأعداء
أأنا عدو
أأنا من سمم النيل
من أطلق الجوع ناراً فى أكباد الناس
من قتل بالسرطان وقتل بالفشل الكلوى
من قدم الأبرياء طعاماً لأسماك القرش
من اغتال العامل فقراً ودفع بناته للدعارة
من اقتلع أظفاره بيديه
أأنا اللص الانتهازى فى الحزب
أأنا التاجر الغشاش فى الوزارة
أأنا الكذاب على الهواء مباشرة
*
لماذا أنتَ أنتَ
جلدٌ مرقطٌ ولسانٌ مشقوق ونابان مترعان بالسم

تقضى عمرك وأنت تنصب الفخاخ أمام الأقدام،
حالماً بعالمٍ خالٍ إلا من روحك المليئة بالثقوب
*

كيف اجتمعت لديك أخلاطُ السجايا وشواردُ الخصال ،
كأنك مددتَ إرادتك فى السديم وجبلتَ نفسك قبضةً قبضةً..
قبضةً من حَنَق العوانس الذى لا يشفيه مروءة أو مكرمة
قبضةً من دهاء الخصيان يرون اكتمال الرجولة جرماً يستحق العقاب
قبضةً من كبت الأرامل إذ يعاتبن الله كل لحظة..
لماذا أدخلتنا فى التجربة
قبضةً من انسحاق الوضيع يلوذ بالقهقهة أمام شتائم سيده
قبضةً من العدمية هوى إليها من استمرأ الاغتصاب
قبضةً من الانتقام الدائم لدى طريد العائلة
قبضةً من إهراق ماء الوجه لدى متسولٍ ملحفٍ
قبضةً من المهانة اعتادها ابن الزانية وهو يستمع إلى فحيح أمه،
تتقلب تحت زبائنها
*

لماذا أنت أنت
جلدٌ مرقطٌ ولسانٌ مشقوقٌ ونابان مترعان بالسم
لماذا تسرق وجهى
تتمطى وتخلع جلبابك ومعطفك
وتتحدث باسمى رافعاً رايات النضال ،
وكنت قبل قليل تتيه على جنونى بمنطق العقلاء الخائنين

فى أى لحظة من النشوء والارتقاء
طرحتَ المعطف الكاكى ، وألقيت بالجريدة المثقوبة

واستبدلت قلماً بالخيزرانة القصيرة
فى أى لحظة
جلست على المكتب المواجه لى
تشرب قهوة الصياح وتصطنع أعراض التفكير
وتنتحل كلماتى لتمسخها ادعاءً ولغواً وتهريجاً
*
لماذا أنت أنت
جلدٌ مرقطٌ ولسانٌ مشقوقٌ ونابان مترعان بالسم

الوريث فى المرآة

حظك العاثر لا غير
نعم ، حظك العاثر ما أوقعك فى بلد كهذا
قذرٌ
كئيبٌ
ملوَّثٌ
مليءٌ بالحفر والمياه الراكدة والمرضى والأراضى البور
وأكوام القمامة والبعوض والفقراء والجبال الجرداء

لا تتصور كم هو قاتل هذا البعوض
لا تؤثر فيه المبيدات
ولا تنقص من أعداده الصواعق الكهربائية
لا تتصور رداءة الفقراء فى أرضك،
نوعٌ لا يشبع
متطلعٌ إلى السحاب
يعتقد أنه يحيا مادام يتنفس ،
يملك ما دام يتكلم،
شريكٌ مادام يتحرك على قدميه

*

ظلمٌ ظلمٌ ظلم

حرامٌ حرامٌ حرام

أن يئول إليك بلد الأغبياء والمعوزين وذوى الاحتياجات

والمضروبين بالسرطانات والاكتئابات

لماذا أنت من دون الوارثين جميعا

تحطّ وسط الخرائب

لماذا أنت من دونهم تتصدى لتحويل القردة إلى رواد فضاء

ولماذا لا يكون نصيبك بلداً فى اسكندنافيا

أو جزيرةً مترامية شقيقةَ استراليا

أو بلداً بكراً فى أفريقيا يسهل استثمار مناجمه ونفطه وفتياته الساخنات

*

هلُ كتب عليك أن تحمل الصخرة الكريهة

صاعداً وسط الحثالة

وعندما تصل إلى ترتيب الخراب حتى يشبه بلداً

يتعمد الجهلة إسقاطها لتبدأ من جديد

الشفقةُ،

هذه الكلمة السيئة

مفتاح الباب الملكى إلى جهنم

إياك منها

إياك أن يرق قلبك للأقنان الخبثاء

إياك أن ترى ملامح الإنسانية فى وجوه الرعاع

أشباهٌ.. أشباهٌ.. أشباه

هياكل.. هياكل ..هياكل

ُجوفْ .. ُجوفْ.. ُجوفْ

ديدان الأرض هؤلاء،
حركهم فى اتجاه تكسير صخور الجبال
أو نقل الصحراء إلى البحر
أو طلاء الهواء بالأسود
أمسكهم من بطونهم حتى يظلوا منكسين إلى أسفل
فالشقاء لهم دواء.
*
لو سمحتَ لهم برفع عيونهم
سيبصقون على السماء
ويمدون أيديهم الملطخة بالأوحال إلى النجوم
فيقتلعونها من أماكنها
يرمون الشمس بمياه القاذورات
والقمر البهى،
القمر الذى تحب أن تنظر إليه فى أمسيات الصيف الساحرة
من شرفة "ريتز" فى باريس ،
يقذفونه بالحجارة.
*
هذه الكائنات تحتاج إلى صنف جديد من المبيدات
هذه الخرائب تحتاج إلى مزيد من الديناميت
أجِّرها مفروشة
أجِّرها بنظام الإقطاعيات
بنظام الBOT
بنظام السخرة
وفق أى نظام
ماذا ستفعل بهذه الأراضى المترامية

ماذا يفيدك أن تظل المدنُ المتهالكة وسفلتها
والصحراوات وبدوها المتقلبون
والقرى وفلاحينها الخبثاء
والعشوائيات وأشباه بَشَرِها
معلقةً فى رقبتك
*
بلد ميئوسٌ منه
بقعةٌ رطبةٌ تحت حجر
من الخطأ تعريضها للشمس
دع الرعاع يمرحون بأعمارهم القصيرة ونهاياتهم التراجيدية إلى حين
دع القطارات المحترقة تتعمّد بالنار
والأحياء المطمورين تحت صخور الجبل ينتظرون ساعتهم
والمقابر المأهولة مأهولةً
والمياه الملوثة تملأ الأفواه وتسرى فى الشرايين
دعِ التراب يكسو واجهات البيوت ووجوه البشر
ودعِ الفلاح الذى يتقيأ دماً يضرب الأرض بفأسه
فى انتظار أن ترحمه السماء
*
احزم حقائبكَ إلى باريس
ومن شرفة جناحكَ فى "ريتز"
تطلعْ إلى قمر الصيف المكتمل فى السماء.

الكلمات الأخيرة للمهرج "ص"

ماذا كنتم تنتظرون
أن أدافع عن حقوق المظلومين والفقراء
أن أقطب جبينى وأقول كلمة حق
هى الأخيرة لى فى القصر والأرض والسماء،
أن أناضل بسيفى الخشبى ضد الطاغية والأزلام؟

ماذا كنتم تنتظرون من المهرج إلا أن يكون نفسه حتى النهاية
أنا ظلُّ الديكتاتور الذى يلتصق بقدميه
حاملُ النكات البذيئة وأخبار المسامرة
حارسُ المسرات والشهوات وكاتم الأسرار
أنا زاحفٌ بين زواحف وضبعٌ وسط آكلات الجيف
حشرةٌ تعلم أنها حشرة وسط أخريات جاهلة ،
وانتصرت عليها بابتسامتى.
*

كان لابد أن أمضى
حيث لا مكان للاختباء ولا فرصة للتوقف
وكلما توغلت فقدت شيئا من روحى
حتى أصبحتُ فارغا تماما
وعارفاً أننى لا شئ
لكنى فى لحظة توقفتُ
أريد أن أغير نهاية المأساة

" إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر"

*

لا أحد يصدق كم أنا قوى

لا أحد يرى ما بنفسى من طاقات

أنا اللاعب الأمهر

المسيطر على الأرواح

هششتُ أشجع الرجال بعصاى

حتى رأيتهم ينحنون أمام امرأة ساقطة

وأعربتُ عن رضاى لحماة الأخلاق

وهم يسلخون جلودهم لقاء حفنة من الذهب

أشد المؤمنين تعصبا ،دفعتهم للسجود أمام الوثن الأكبر

وأجمل النساء قدمتها للبغال تلوكها دون نظر

وكان علىّ وضْع الكنارى على لسانى

بينما تمور داخلى الغابة ووحوشها الجائعة.

*

أنا المهرج أيها العالم

أنا صانع المجد الملطخ بالسخرية

والموصوم إلى الأبد

أيتها الصحراء المليئة بالفضلات

أيتها المدن المصنوعة من القش والأكاذيب

أيتها الأنوار التى تستحق الإطفاء

أيها الشياطين والرجال الجوف والداعرات والمأبونون واللصوص والقتلة وتجار الدماء

أنا من يعلم أن مياه جميع البحار لن تزيل الوسخ عن روحه

ومع ذلك يسعى بهمة العمال ليملأ عينيه بابتسامة طفل

أويراقب "الزهرة" وهى تلمع وحدها فى السماء.

*

أريد أن أرى ابتسامة نقية واحدة

أريد أن أستقبل نظرة رضا لا أكثر

لأقول إنها الحياة المليئة بالعجائب

لأتوقف عن ريّ الكراهية فى قلبى كل صباح

حتى أصبحت غابة واسعة مليئة بالأشجار والكائنات

وتاه اسمى بين أدغالها.

*

فى أيامى الأخيرة

كانت متعتى أن أتشرب نظرة الدهشة فى عينى الفريسة المطعونة..

أنتَ

أيها الحقير..

نعم أنا ، القادر الناهش المسيطر

النسخة الأكثر تطورا من ظلال الطواغيت

أين أعمارُنا أيها الديكتاتور.. أين نذهب بالكراهية والأحلام الجريحة

ليتمجد اسمُكَ

وليتواصلْ جيلاً بعد جيلْ

تزول الوجوه ويبقى سمتُكَ علامةً على الوجود

فى البدء كنتَ

فرداً .. زعيماً .. شبحاً ،

وخرباً خالياً كان العالمُ

وعندما تمدد ظلُكَ الأسود ولاح وجهُك الأزلى

ظهرت الأرضُ والدماء

والناسُ والأسلحة

والحيواناتُ والأنياب

والسماءُ والطائرات القاذفة .

أيها الديكتاتور المبَجّلُ

والأخُ الأكبر

والعلَمُ

والنسر المجنّح

والنيلُ

والنشيدُ الوطنى

والحقول الخضراء فى الأغنيات
والهواءُ الباردُ فى الصيف
والدفءُ فى شتاء يناير
أين أعمارنا ؟
أين سنوات الأمل والأمنيات العريضة؟
أين الأسئلة الأولى والدهشة الأولى واليقينيات الأولى؟
أين نذهب بالكراهية والأحلام الجريحة؟

ياربَ السأم والبوار والخراب
يا واضعَ المدية فى يد الإبن إلى قلب الأم
ياقاطع الجسر بين العاجز واحتمال الحياة
يامكسب العيون غشاوتها وهى مفتوحة ناظرة
يا مسلِّط الدواب والحشرات على عقولنا
ياواهب الجهلاء والعاطلين والأغبياء التنفّج والخيلاء
يا معذب الأرواح بالسجن أمام استعراضات البلهاء
يامقيم أودنا على الأشواك وتطلب الشكر والقناعة والعينين المغرورقتين بقبول النعمة
يا مرجف القلوب ساعات وأياما وسنينا فى قبضة الزبانية
يا مهلك الأبدان شقاء وكمدا
يا كاره التساؤل فى القلوب التى تتنفس ،
التى هربت من أقفالها
التى هزمت قضبانها
تعبنا.. تعثرنا ..سقطنا تحت العجلات
ولم نجد إجابة
لماذا .. لماذا.. لماذا
كيف .. كيف.. كيف

لمن .. لمن .. لمن

-2

أيها الديكتاتور المبَجّلُ
لم يعد لدينا شروقٌ أو صبحٌ أو ضحىً أو ظهيرةٌ أو غروبٌ أو ليل
انتهى الوقت إلى الانتحار البطىء البطىء
إلى الفشل الكلوى والسرطانات
إلى الألزهايمر والشيخوخة التى تزحف على مشارف الأربعينيات

اختفى المستقبل كأننا خسرناه فى مقامرة
كنا كاملين واعدين طامحين
كنا جميلين فرحين آملين
كنا أقوياء حالمين مُقدمين واستيقظنا على يد تحشرنا فى قطار يحترق

أصبحنا أشباهَنا الضعفاء
كسوراً كسوراً
ليس فينا واحدٌ صحيح

أتعرف أيها المبجل ، أن المدن تنام متكومة مثل أطفال الشوارع
تنهش أقدامها الكلاب ويتحرش بها الأشقياء وتُلبّدُ سماءها الخفافيش
أتعرف أن الليل يهبط كابياً خانقاً
يغمر نظرة العاشق بالألم وبهجة الحبيبة بالانكسار
يا للأسى الذى لم يترك لنا سوى الرغبة فى الرحيل
مازال داخلنا لمحات من سعادة مختلسة وانتصارات
لكنها هناك فى أقصى النفس ،مطموسة بالهزائم

وجودها الأقسى من امحائها
يحجب عنا الأمل أو رحمة السقوط فى اليأس

-3

ألمٌ أيها الديكتاتور
ألمٌ فى قلوبنا مثل اكتشاف النهاية
ألمٌ مثل نسيان موعد الحب
مثل القمامة فى عيوننا
ومياه الصرف التى تغرق أرواحنا
مثل الأطعمة الفاسدة
والشاشات الفاسدة
والشركات الفاسدة
والطرق الفاسدة
والوجوه الفاسدة
والكتب الفاسدة
والصحف الفاسدة
والمرايا الفاسدة
الآهة ممتدة ،تطفُر منّا دون سبب سوى إدراكنا ما أصبحنا عليه،
موتى يستقبلون الحياة كل صباح

أن تُقيدَ يداك وقدماك وتُقذفَ فى الماء دون أن تعرف لم
ربما كنتَ تحمل ذكريات جميلة مع الموجات تلامس بدنك
ربما استطعتَ استحضار خفة الطفو للحظة
لكن ماذا تفعل مع هذا الرعب الذى ينتابكَ ويهوى بكَ إلى أسفل أسفل أسفل
والقاع يهرب يهرب يهرب
والمياه التى كانت حميمةً فى الماضى تستقبلكَ بغضب فاتر ولا مبالاة كما لو كنتَ حجراً
لا أمل فى معجزة تكسر القيد حول معصميكَ
وتمنحك لذة أن تضرب الماء بغلٍّ وقسوة
لا أمل فى معجزةٍ ترفع معها رأسكَ لحظاتٍ فوق الصفحة السوداء
فوق الهوة السحيقة،
فوق النثارات والبلل الجارح والنجاة البعيدة كجنة الشيطان التى يعرفها جيدا،
ويعرف أنه لن يقربها ثانية

أيها الديكتاتور المبَجّلُ
أتعرف أننا لا نتوقف عن السقوط
حتى أصبح القاع حلما والغرق نهايةً مشتهاة
أتعرف أن أكبادنا مطعونة مطعونة بهذا العذاب؟

-4

يحدث كثيراً كثيراً ، أيها المبجل ،أن نوصد الأبواب
ونطفئ الأنوار
ونغلق النوافذ والدواليب وأجهزة التكييف اللعينة والتلفزيون الدامى
ونبكى قهراً وضياعاً

نبكى لأننا نعرف أن حياتنا انتهت
ومازلنا ندب على أقدامنا
نستيقظ مسرعين فى الصباح
نشرب القهوة
ونذهب إلى أعمالنا
ونتجادل
ونكتب كلماتٍ لا تحفظ دما ولا تحرك حجرا
ونضرب زوجاتنا
ونلقن أطفالنا محفوظات التقاليد ،
وحول رءوسنا تحوم هالة من الذباب الأزرق الكبير
بم تريد أن تشير
يا للعقاب الذى نتلقاه
أى جريمة اقترفنا حتى يغشانا الذباب
سحابات سحابات تمتص دماءنا
وتسبب لنا الصرع والجنون
كيف غدونا فريسة لهذه الكائنات الكريهة
لمَ أصبحنا جثثاً تستدعى الذباب

-5

أيها الكل شئ ..
الجميعُ.. اللذون ..الهُمُ ..الحاضرون والغائبون ،
الأسلافُ والأحفادُ والنطفُ فى الأرحام،
المنهجُ والفلسفة والطريق ،
تستطيع أن تستلقى وتستمتع برؤية أشلائنا وهو تئن بأسمائك وصفاتك..

أيها الماحقُ المهلك الهالك الباغى البغيض الوحش الخناس القامع الشقى كاسرُ الظهر
الغبى المهاب الرهيب الرعديد المتجبر الجارح الرجيم
الطامح الطامع الطالح المانح المبذر المفقر المضل الممسك المهدر المعاند الصفوان الأخسر
النهّاب البطّاش النهّاش الفسّاد الجلّاد المحتكر الشره الأثيم
الباهت الخافت المطفأ الخاضع المهان الغافل الفَرِح الخانع العاطل المتخاذل المكابر المعتم البليد
الكاسد الكئيب البائس الضائع الدعىّ الرخو الصنيع الميّت العائش العتلّ الزنيم
الماكر الشرّ الخائبُ العيُّ الواطئُ المترفع المتنفج المختال الفاشل المتهافت الفاجر المحدث
المفتن المرجف المحرّض القامع المغرض المقوض المقصى اللدّ الخصيم
الرافض الكاره الناظر الأعمى السامع الأصم المغلقُ الفؤادِ هازمُ الروحِ الكنودُ الخائف المخيف
المحبط المحيط ذو الأذرع والرءوس والأعمار الجهول الغشوم اللئيم.

_6

رأيتُكَ عارياً تتجول فى شوارعنا الفقيرة
تدوس أحلامنا بجنازير دبابتك
سمعتُكَ تتكلم ،
فتتهدم مدن كانت لنا
تتساقط أبنية كنا نحلم بزيارتها ونحكى عنها لأبنائنا
تتثاءبُ ،
فيطلق زبانيتكَ الرصاص باتجاهنا
ويزحف الأصفر على النباتات وتزول الأفكار اللوامع من رءوسنا
تضحكُ ،
فيضرب الزلزال منازلنا المتصدعة أصلا
تغمضُ عينيكَ ،
فيفيض الليل وتتشقق الأرض عطشاً ويأكل الناس القمامة
تلهو فتُضاء الشوارع بالكباريهات وتبيع الأم فخذيها فى الشوارع

تحزنُ ،
فتتأمّم أفراحنا ، حتى تلك التى فى أقصى القلوب ،
يأتى من يتسلط عليها ويفسدها بالكآبة والجوع والحمى

_7

لا شئ نملك
لا أدوات
لا أسلحة
أسنانٌ أسنانٌ أسنان
قواطعُ قواطعُ قواطع
أنيابٌ أنيابٌ أنياب
أظفارٌ أظفارٌ أظفار
لنعد إلى البداية
الغابة الأولى
المطاردة الأولى
الغبار المرتفع
والوصول إلى الساحة الفسيحة على ضفة النيل
لا حراس ولا رشاشات إسرائيلية سريعة الطلقات
لا عربات مصفحة
لا قضبان أو غياهب أو زنازين
لا سترات واقية ولا ربطات عنق إيطالية

أوااه أوااه أوااه أوااه أوااه أوااه

إد إد إد إد إد إد إد إد

لا لا لا لا لا لا لا لا

الرحمة الرحمة الرحمة الرحمة الرحمة

فهمتكم فهمتكم فهمتكم فهمتكم فهمتكم فهمتكم فهمتكم

مثل أبنائى أبنائى أبنائى أبنائى أبنائى أبنائى أبنائى أبنائى

شهداؤكم شهداؤكم شهداؤكم شهداؤكم شهداؤكم شهداؤكم شهداؤكم

أسنانٌ وأنيابٌ وقواطعُ وأظفارٌ ونهشٌ وتمزيقٌ وصيحات انتصار عالية فى مواجهة الشمس هنا ،فى الساحة على ضفة النيل،

أيها الديكتاتور المبجل.

الدمُ

أنا فى الصالة

أمام شاشة التلفزيون

والمذيعة فمها شهوانى وعيناها تلمعان

وابنتى فى غرفتها

تتحدث إلى دميتها

وتحملها بأسنانها

مثلما تحمل القطة صغيرتها دون أن تؤذيها

كلمة الحرب

كلمة الإرهاب

تنضغطان بين الشفتين المكتنزتين

وتكتسبان مسحة من الفحيح الغامض

كلمة الجرحى..

قنابل الغاز

القصف

لقوا مصرعهم

.....

.....

رذاذ أحمر يخرج من شفتى المذيعة
ويتراكم على الشاشة
ثم يسيل مثل عناقيد الندى
ومن عينيها يتدفق الدم
غزيرا ويلطخ ملابسى
والريموت لا يحمينى من السائل القانى المالح النفاذ

الصالة انفتحت على الميدان
والدم يغمر السجاجيد
والأرائك والحوائط
الدم أغرقنى فأدرت ظهرى
وأنا أشهق وأمسح فمى وأنفى
وأفكر فى ابنتى التى تحمل دميتها بأسنانها

حاذرى يا ابنتى
خرجت من غرفتها على صوت شهيقى
فجرفتها موجة حمراء عاتية
بعيدا عن يدى الممدودة
والدم يرتفع
ويتقدم
ويضرب بغضب

ويضرب بشراسة

ويضرب دون بصيرة .

بالإبر على آماق البصر

عيونٌ هائمة

بيضاء بيضاء من الحزن

فى الليالى المظلمة ،

تظهر مثل فراشات مضيئة

قريبة للغاية

مثيرة للمس

بدموعها الحمراء التى تقطر فى الهواء

ثم تحوم مبتعدة كمن يستجيب للنداء

.....

.....

أما زلت تبصرين

لمن يذهب النور

ولمن العتمة

عندما تغمضين ،

هل ينام أحد ما

هل تغور الصور والذكريات فى النسيان ؟

*

عيونٌ هائمة
بيضاء بيضاء من المرارة
لا يمكن تجاهل اندفاعها الخائف
وهى تبحث عن محاجرها التى غادرتها

خائفةٌ من القناصة
من الكلاب
من القتلة العشوائيين
من التجار
من الحرباوات
من الوعد المكتوب بالإبر على آماق البصر

*

عيونٌ هائمة
بيضاء بيضاء من الحيرة
عندما أمسكت واحدة منها
سألتنى
لماذا اقتلعتنى الرصاصة
أية قدرة طمستنى
أية إرادة سلبتنى وسمرتنى بصرا حسيرا فى الفراغ
وأى وعد علىَّ أن أحمل

*

عيونٌ هائمة
بيضاء بيضاء من الألم
تخيلناها تصعد إلى السماء
تحل محل النجوم
وتشير من بعيد بالضوء الخافت
فيلتقطها العاشق ويطلق عليها اسم حبيبته
لكن السماء القاسية لا تقبل نجوما من الأرض

*

عيونٌ هائمة
بيضاء بيضاء من الغربة
فى الليالى المظلمة
تظهر للمحزونين والمعذبين
فينطلق الصوت من القلب المكلوم..
يا ليل
يا عين.